ما يَجْمعني بابنتي!

رنا إدريس*

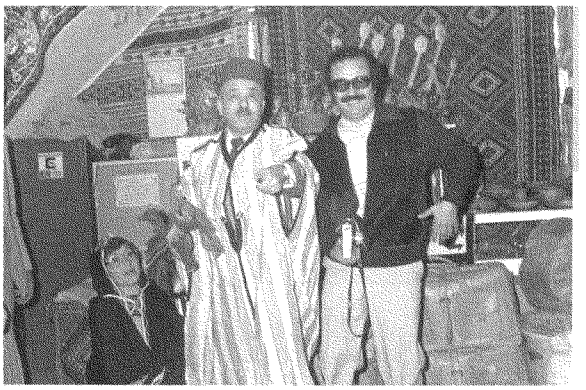

سهيل إدريس في بلدٍ مغاربيّ (لعلّه تونس).

«هل أنتِ قريبةُ سهيل إدريس الكاتب؟» يسألني الشاعر پول شاوول، أستاذُ مادّةِ اللغة العربيّة في صفّ الأول ثانوي في مدرسة الليسّيه الفرنسيّة. «نعم، إنه من عائلتي،» أجيبُه. كنتُ أخشى أن يَعْلم أساتذتي أنني ابنةُ سهيل إدريس، حتى لا يتوقّعوا مني أيَّ تفوّقٍ في مادّة العربية!

وبعد عَشْرِ سنوات، يأتيني صوتُ سهيل الدافئُ عبْرَ الهاتف، في نيويورك، حيث كنتُ أستعدُّ لكتابة أطروحة الدكتوراه في علم الأنثروبولوجيا في جامعة نيويورك، عام ١٩٨٥: «رنا، عودي إلى بيروت، دارُ الآداب بحاجةٍ إلى دم جديد؛ ثم إني أريد أن أُدرِّبَكِ على أمور الدار قبل أن أصبحَ عجوزًا.» وهل كان سهيل، الذي ضَخَّ فينا منذ الصِّغَر الهمَّ العربيَّ وفكرَ عبدِ الناصر والقضيّةَ الفلسطينيّة، يظنّ أنّني أريد أن أبقى في أميركا إلى الأبد؟

عندما عُدْتُ من نيويورك، قلتُ لسهيل: «أريدُ أن أبدأ بنشرِ سلسلة الرواية اليابانيّة»؛ ففي نيويورك كان كلُّ ما هو ياباني على الموضة. وبانفتاح ما زال يُدْهِلُني حتى الآن، قال لي: «Carte Blanche، أنا أثِقُ بكِ، وأنا مستعدٌّ لدعم هذه السلسلة بترجمة الرواية التي تُعْجِبكِ.» وكان أنْ ترجَمَ سهيل روايةَ كاواباتا الرائعةَ، **حزنٌ وجَمال**. ثم جلس معي ساعاتٍ طويلةً يَسْقيني خِبْرتَه في الترجمة ويراجِع معي جملةً جملةً ترجمتي لرواية ميلان كونديرا، **الحياةُ هي في مكانٍ آخر**، وترجمتي لرواية مارغوريت دوراس، **العاشرة والنصف ذاتَ مساءٍ صيفيّ**. وها هي مخطوطاتُ الرواية العربيّة تنهالُ علينا من جميع أنحاء الوطن العربيّ، نَقْرأُها أنا وسهيل ونتداولُ في شأن نشرها، نختلف حول مسألة اللغة العاميّة ومسألة المبالغة في الكتابة الإيروتيكيّة، وحول الرواية التاريخيّة التي لم يكن سهيل يميل إليها.(١)

وفي السنواتِ الأخيرة، أَمْسَكَ بيدي وأخذني إلى عالم المعاجم ودرّبني على أسلوبه في تأليف المعاجم الفرنسيّة ـ العربيّة والعربيّة ـ الفرنسيّة، تمامًا كما درّب سماحًا على تأليف معجم عربيّ ـ عربيّ. ولكنّ أهمَّ التعاليم النشريّة التي ضَخّها سهيل في دمنا مسألةُ أولويّة المشروع الثقافيّ فوق أيِّ اعتبار. وليس بالأمر السهل، كما قد تَعْلمون، أن يَطْغى على أيّة مؤسّسةٍ تحاولُ أن تستمرَّ تجاريّاً، الهمُّ الثقافيُّ.

«عندما يكون العملُ مُبدِعًا، يتمتّع بمواصفاتٍ أدبيّةٍ رفيعة، فسوف يكْتشفُه القارئُ يومًا ما،» هذا ما كان يقوله سهيل، ويتابع: «انظري إلى مسرحيّة سعد الله ونّوس، **الفيل يا ملكَ الزمان**. لقد بقي هذا الكتابُ أكثرَ من عشرين عامًا في مستودعاتنا قبل أن ينفَدَ، ولكننا بقينا ننشرُ مسرحيّات ونّوس اللاحقة، إيمانًا منا بأنها رائعةٌ وتستحقُّ النشرَ، وها نحن اليومَ نَنْشر هذه المسرحيّةَ على الأقلّ مرةً كلَّ عام. العملُ الممتازُ سيُكتَشَفُ يومًا ما يا ابنتي. ولكنْ علينا بالنَّفَس الطويل وبالإيمان بمشروعنا الثقافيّ.» ولعلّ هذا الجانب هو ما جعل فرانك مرمييه، المتخصّصَ الفرنسيَّ في شؤون النشر في الشرق الأوسط، يكتب أنّ دار الآداب، التي أسّسها سهيل إدريس عام ١٩٥٦، قد تكون الدارَ الوحيدةَ التي «تملك قوّةَ التكريس» على المستوى العربيّ.(٢)

واليومَ، تَجْلسُ تالة، ابنتي في صفّ البكالوريا، بالقرب مني، لتواسيَني وأنا أَذْرفُ دموعَ الحزن والغضب على ما يجري في غزّة الجريحة، تمامًا كما كنتُ أحاولُ مسحَ دموع سهيل عندما سَمِعَ خطاب تنحّي جمال عبد الناصر. وتقول لي تالة: «ماما، قرأْنا اليومَ في الصفّ 'رسالة إلى أمي،' لجدّو سهيل. ولم أقلْ للأستاذ إنني حفيدتُه، ولا إنّني أتدرّبُ منذ الآنَ على العمل في دار الآداب، حتى لا يتوقّع مني أيَّ تفوّقٍ باللغة العربيّة!»

الدار البيضاء

---

* ـ مديرة دار الآداب، وهذه الكلمة أُلقيتْ في ندوة نظّمتْها وزارةُ الثقافة في المغرب بمناسبة الذكرى الأولى لرحيل د. سهيل إدريس، وشارك فيها محمّد برّادة وأحمد المديني وسماح إدريس، وقدّمها عبد الحق لبيض.

١ ـ لاحقًا، أسّسنا لجنة قراءةٍ خاصّةً بالدار، تَدرس المخطوطاتِ وتعدّ التقاريرَ. هذا بالطبع إضافةً إلى قراءتنا، الوالد وأنا، لاسيّما لتلك المخطوطات الإشكاليّة، التي يختلف بشأنها أعضاءُ لجنة القراءة. وقد رأينا، في تأسيس هذه اللجنة، خطوةً كبيرةً باتجاه «دمقرطة» سياسة النشر في دار الآداب.

٢ ـ "Souvent comparée à Gallimard, Dar al Adab est probablement la seule maison d'édition Arabe qui possède la force de consécration littéraire à l'échelle Pan Arab" (**Le livre et la ville** - Actes Sud 2005).